

سوسيولوجيا الجسد والحجاب

جنيدي عبدالرحمان

جامعة غرداية، الجزائر

ملخص بالعربية:

طرح الجسد كموضوع ثقافي على أصعدة عدة في الأدبيات المعاصرة، الأمر كما لو أن الجسد هو محور يدور حوله شتات الثقافات المعاصرة. هذا الوعي بالجسد يصب في النهاية في موضوع المرأة ورغبتها في إيجاد صيغة جديدة بينها وبين الرجل تضمن لكل منهما احترام الآخر كذات، ومن ثم فلا غرابة أن يظهر موضوعُ الجسد كموضوع نسوي بالدرجة الأولى، حيث يستأثر جسد المرأة باهتمام خاص كموضوع ثقافي. ومن ثم يصبح جسد المرأة مستهدفاً سياسياً واقتصادياً، ومن هذا المنطلق سنحاول التعرض أولاً إلى بعض الإسهامات النظرية المتعلقة بالجسد والتي نعتبرها كمدخل لفهم سوسيولوجيا الجسد والحجاب وثانياً نتحدث عن موضوعة الحجاب وثالثاً نتطرق إلى الحجاب وسوسيولوجيا الاستهلاك كتساؤل مكمل.

كلمات مفتاحية: الحجاب، الجسد، المرأة،

Résumé de l'article

Exposer le corps comme sujet culturel sur plusieurs plans des literatures contemporaines, c'est comme si le corps est un centre autour duquel tournent les différentes cultures contemporaines éparpillées. Cette prise de conscience du corps aboutit au sujet de la femme et son désir de trouver une nouvelle formule entre elle et l'homme qui pourra assurer à chacun d'entre eux un respect mutuel autonome, et à partir de là, il est très logique que le thème du corps soit un sujet purement féminin par excellence, et le corps féminin s'accapare un intérêt special comme sujet culturel, et à partir de là il devient ciblé sur le plan politique et économique. De ce point là, on essayera premièrement d'exposer certaines contributions

théoriques concernant le corps et que nous considérons comme introduction à la compréhension de la sociologie du corps et le voile. Deuxièmement, nous parlerons de la mode du voile et troisièmement, nous entamerons le thème du voile et la sociologie de la consommation comme interrogation complétive.

تمهيد:

يُطرح الجسد كموضوع ثقافي منذ فجر التاريخ، غير أن الربع الأخير من القرن الماضي يوقفنا على الوعي المتزايد بموضوع الجسد، وطرحه على أصعدة عدة في الأدبيات المعاصرة "إن تقنيات الجسد هي الطرق التي يعرف بها الناس في هذا المجتمع أو ذاك. باستعمال أجسادهم ويجب الانطلاق في كل الحالات من المُجسّد إلى المُجرّد لا العكس"¹ الأمر كما لو أن الجسد هو محور يدور حوله شتات الثقافات المعاصرة. هذا الوعي بالجسد يصب في النهاية في موضوع المرأة ورغبتها في إيجاد صيغة جديدة بينها وبين الرجل تضمن لكل منهما احترام الآخر كذات وجسد وتحميها من سيطرة الرجل على جسدها واعتقال ذاتها وحريتها كفرد له وعيه وإرادته الخاصة، ومن ثم فلا غرابة أن يظهر موضوع الجسد كموضوع نسوي بالدرجة الأولى، حيث يستأثر جسد المرأة باهتمام خاص كموضوع ثقافي. ومن ثم يصبح جسد المرأة مستهدفاً سياسياً واقتصادياً أكثر من أي شيء آخر.. يقول في هذا الصدد: رمضان بسطاويسي في حديثة عن (فلسفة الجسد). إن تحليل مفهوم الإنسان عن جسده الخاص يمكن أن يفضي بنا إلى تبين الصورة التي يكونها المرء عن نفسه"². ومن هذا المنطلق سنحاول التعرض في البداية إلى بعض الإسهامات النظرية المتعلقة بالجسد والتي نعتبرها كمدخل لفهم سوسيولوجيا الجسد والحجاب ثم نتطرق إلى الحجاب وسوسيولوجية الاستهلاك كجانب مكمل.

¹ Marcel Mauss. Techniques Of Body. Economy and Society 2-p 126.

² يتضمن كتابه - الإبداع والحريّة - الصادر عن الهيئة العامة لتصور الثقافة بمصر ثلاثة مقالات (فلسفة الجسد - سوسيولوجيا الجسد بين الثقافات - صورة الجسد في الإبداع العربي) - يمكن مراجعتها لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع .

1- الجسد من منظور النظرية الاجتماعية: "تشكل النظريات والمعارف الاجتماعية إطلاقات أساسية، ترشد الباحث إلى المجالات التي يجب أن يسلكها، في سبيل استشفاف الواقع الاجتماعي، كما أنها تعتبر المعين النظري الخصب الذي تستمد منه المفاهيم العلمية، والأطر التحليلية لدراسة المجتمع." ³

قد تحول الجسد من خلال فعل المخيال السوسيولوجي، حتى أصبح الجسد يشكل حجر الزاوية ومحور التحليل الأكاديمي في كثير من الدراسات والبحوث، كما أن الجسد يعد تدريجياً أساساً لفهم الهوية الذاتية للشخص الحدائي لذلك تزايد قدر الاهتمام الأكاديمي بسوسيولوجية الجسد والموضة والتسوق والاستهلاك، ففي السنوات الأخيرة أبرز علم اجتماع الجسد بوصفه مجالاً متميزاً للدراسة، وصدرت مجلة جديدة عام 1995 تسمى Body & Society. ⁴ بل إنه اقترح وجوب أن يوظف الجسد بوصفه مبدأً منظماً لعلم الاجتماع.

كما يراهن - ترنار - بأن " السوسيولوجيا في الجسد ترهّن في النهاية بطبيعة التقسيم الجنسي والعاطفي. تصبح سوسيولوجيا الجسد بشكل حاسم سوسيولوجيا دراسة ضبط جنسية، خصوصاً الجنسية الأنثوية، من قبل رجال يمارسون سلطة أبوية." ⁵ وفي ضوء هذا الهدف استحدث - براين ترنار - مصطلح "المجتمع الجسدي" ليصف كيف أن الجسد في الأنظمة الاجتماعية الحديثة قد أصبح "المجال الرئيس للنشاط السياسي والاجتماعي" ⁶ كما يرى ترنار (Turner): أن مشكلة التحكم في الجسد وضبطه، هي مشكلة تواجه كل مجتمع فكل مجتمع تواجهه مهام أربع: إعادة إنتاج أفراد عبر الزمن والتحكم في أجساد أفراد عبر المكان، وكبح الجسد الداخلي (الرغبات) من خلال التّظيم وحضور الجسد الخارجي (المظهر) في الحيز الاجتماعي.

وفي إطار هذه المهام فإن عملية تنظيم المجتمع ما هي إلا تنظيمٌ للأجساد داخلياً وخارجياً عبر الزمان والمكان. والجسد جزء أساسي من هوية الإنسان. "فوجود الإنسان هو وجودٌ جسديٌّ في المقام الأول. والجسد هو الإدارة الأساسية لاكتساب المعرفة والتعبير عنها وتطويرها، والجسد موجود في قلب الرمزية الاجتماعية" ⁷ وقد طرأ أيضاً تصاعد مُكثَّف على اهتمام

³ - هيفاء فوزي الكبرة، المرأة والتحويلات الاقتصادية والاجتماعية، ط 1، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ص 14

⁴ - كريس شلنج، الجسد والنظرية الاجتماعية، تر: منى البحر، نجيب الحصادي، ط 1، دار العين للنشر، مصر، 2009، ص 19.

⁵ - Turner. BS. The body and Society. Basil Blackwell. . Oxford. 1984. P..114

⁶ - Turner. BS. Regulating Bodies . **Essays in Medical Sociology**. Rout ledge. London.1992. p.162

⁷ - B.turner. **the Body And society**.basil blackwell.Oxford.1989.p292

الجمهور بالجسد والموضة. هكذا نجد الجرائد والمجلات والقنوات الفضائية تعجّ بمواد عن صورة الجسد: الوشم على الأجساد الجراحية التجميلية وكيفية جعل الجسد يبدو فتياً مثيلاً وجميلاً.

وفي هذا السياق تدرج الملابس ومن بينها الحجاب كجلد ثاني للإنسان يتعلق بالمظهر الخارجي ليعبر الجسد من خلاله على شخصيته ومكانته وانتماءه الحضاري والثقافي وهذا ما نلاحظه في الانتشار الواسع لدور الأزياء العالمية في موضة الألبسة. فوضع الجسد ضمن ثقافة الحداثة يعكس فردانية غير مسبقة للجسد. فلقد أصبح اهتمام الناس يتزايد أكثر بصحة وشكل ومظهر أجسادهم، بوصفها تعبيراً عن هوياتهم الفردية. ولعل الحجاب كأحد الملابس النسائية تحاول المرأة من خلاله أن تؤكد هويتها الثقافية.

لم يكن الجسد من الاهتمامات الأساسية في علم الاجتماع الكلاسيكي وإنما ظهرت التأثيرات الأساسية التي شكلت رؤى في الجسد بوصفه مشكلاً اجتماعياً، وبوصفه مكوناً اجتماعياً، قابلاً للترويض ومتحكماً فيه بالخطاب السائد. مع أنثروبولوجيا - ماري دوغلاس إضافة إلى أعمال - ميشال فوكو - ورؤى - أرفنغ جوفمان - نصير التفاعلية الرمزية وأيضاً - بيار بورديو - والذي تعتبر أعماله إحدى المقاربات النظرية المعاصرة الأكثر أهمية في الجسد.

1- 1 الجسد في علم الاجتماع الكلاسيكي: يشير التكوين البيولوجي والاجتماعي إلى ثنائية أساسية في الفلسفة وعلم الاجتماع "الطبيعة/الثقافة" وهنا يفترض أنه ليس بالمقدور تحليل الجسد وتفسيره دون إشارة إلى خصائصه ونزواته "الطبيعية". من جهة وإلى انتمائه الثقافي المتعلق بتنشئته الاجتماعية من جهة أخرى.

وحسب عالم الاجتماع الفرنسي - مرسيل موس - فإن أي ظاهرة كلية ينبغي أن تُدرس من كل زواياها وجوانبها لفهم كيف يتم فصل الفردي والجماعي. فدراسة مثل هذه الظاهرة تخبرنا عن الطرق التي بها يندرج الفرد في المجتمع. كما أن مفهوم الفرد نفسه ليس مُعطى طبيعياً أولياً بل له تاريخ يتلاقى فيه الطبيعي والثقافي والفردي والجماعي. ففي دراسته حول موضوع (الهـــــــــــــــــبة) - أثبت - مارسيل موس - Marcel Mauss أن التبادل لا يخضع للضرورات الاقتصادية فقط بل يُستعمل لإنشاء علاقات دبلوماسية أو سياسية أو قانونية كما أن له في بعض المجتمعات وظائفاً دينية وأبعاداً سياسية. فهذه أمثلة معدودة لمقاربة - موس - للظواهر الاجتماعية ورفضه أن يحددها في مجال علمي واحد إذ الإنسان حسب رأيه ظاهرة

كلية لا تجوز تجزئتها.⁸ كما أكد على أنه لدى كل الثقافات أساليب خاصة فيما يتعلق بالجسد حيث توفر للمنتمين إليها هويات. وتمنحهم طفولة ومراهقة وشيخوخة مقننة.⁹

وإن لم يتعامل علم الاجتماع الكلاسيكي بطريقة ملائمة مع كل متطلبات الجسد البشري، فإن هذا لا يبرر الحكم بأن علم الاجتماع بُنِيَ مقارنة؟ لا جسدية كلية. مثال ذلك كارل ماركس (Marx) في مسألة استيعاب الجسد في التقنية الرأسمالية. أيضا كتب جورج سيمل (Simmel) عن الميول الجسدية التي تدفع الناس نحو بعضهم البعض، والعواطف الاجتماعية التي أسهمت في الحفاظ على العلاقات الاجتماعية كما تقصى آثار اقتصاد المال الضارة على تلك العواطف.

وكذا أعمال "ماكس فير" تبدي اهتماما بعقلنة الجسد فيما يعتبر "إميل دوركايم" الجسد مصدراً وموضع تلك الظواهر الدينية التي أسهمت في تماسك الأفراد في كليات أخلاقية. وكذلك إسهامات "مرسل موس" إذن علماء الاجتماع المؤسسين لم يهتموا كثيراً بالجسد بوصفه نسقا تنظيميا. إلا أن هناك أعمال سوسيولوجية معاصرة تناولت الجسد كمفهوم أساسي في التفاعل الاجتماعي من بين أهم هذه الإسهامات:

1-2 المقاربة الأنثروبولوجية لماري دوفلاس: تجادل الباحثة الأنثروبولوجية الأمريكية - ماري دوفلاس - بأن الجسد البشري هو الصورة الأكثر جاهزية للنظام الاجتماعي، وتقترح أفكارا عن الجسد البشري تستجيب بشكل مباشر لأفكار رائجة عن المجتمع. فضلا عن ذلك تنزع قطاعات بعينها في المجتمع إلى تبني مقاربات للجسد تستجيب لأوضاعها الاجتماعية. وعلى غرار ذلك فإن الجسد فوق كل ذلك كناية عن المجتمع ككل.¹⁰

هذا يعني أنه في وقت الأزمات الاجتماعية، حين تتعرض حدود وهوية المجتمع للخطر من المرجح أن يكون هناك انشغال بالحفاظ على الحدود الجسدية القائمة وعلى طهرانية الجسد.¹¹ وهذا ما ينطبق على معركة الحجاب سواء في فرنسا، حيث أن الخمار أصل عملية التمثيل الاجتماعي ونواته المركزية التي تعطي المعنى الثقافي والقيمة لباقي عناصر الحجاب لذلك مُنع الخمار في أماكن الدراسة والعمل لأنه يمثل نواة دلالات الحجاب.

⁸ من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة . G:\kk . امرسيل_موس.htm

⁹ -Marcel Mauss. Techniques Of Body. Economy and Society 2-p 70.

¹⁰ -Douglas. m. **Natural Symbols. Explorations in Cosmology.** The Cresset Press. London.1970. P.71.

¹¹ -Douglas. m. **Natural Symbols.** P.72.

وفي العالم العربي حيث العملية تجري على العكس من ذلك " لأن النواة المركزية في التمثيل لها مقاومة شديدة للتغير " فلاحظ بقاء الخمار وتحولاً في شكل وكيفية التحجب بما يسمح به النسق المحيطي من أجل التكيف والاندماج مع مختلف الفاعلين الاجتماعيين. في ظل الاحتكاك الحضاري والتنوع الثقافي والتغير الحاصل في المجتمعات.

لا تُعدُّ أنثروبولوجيا - دوفلاس - بهذا المعنى المحدد أنثروبولوجيا في الجسد. بل أنثروبولوجيا المنزلة والطبقية الاجتماعية. فوفقاً للموضوعة يصبح الجسد مشروع عدد متزايد من القطاعات ثمّة نزوع شطر الانشغال بعوامة الجسد. إذن فمفادُ المبدأ العام في أعمال - دوفلاس هو أنّ الجسد الاجتماعي يقيّد كيفية إدراك الجسد الفردي (المادي).

1-3 المقاربة البنائية لميشيل فوكو: تُعدُّ أعمالُ الفيلسوف الفرنسي - ميشيل فوكو - " المقاربة البنائية - التي

تتجاوز كثيراً اعتبارَ الجسد مستقبلاً للدلالات الاجتماعية؟. فعند فوكو الجسد لا يحصل فحسب على دلالات عبر الخطاب بل هو مشكل كلية عبر هذا الخطاب.¹²

ويكاد مفهوم الخطاب يتطابق مع مفهوم أنماط وأساليب التنشئة الاجتماعية والتي بدورها تتغير بالتغير الحاصل في المجتمع ككل. " فعملياً يتلاشى الجسد ككيان بيولوجي ويصبح نتاجاً مشكلاً اجتماعياً طبعاً بشكل غير محدود.¹³ كما تتميز مقاربة فوكو للجسد أولاً بانشغال مكثف بالجسد والمؤسسات التي تتحكم فيه. وثانياً برؤية إبستمولوجية في الجسد بوصفه ناتجاً وكياناً قائماً في الخطاب.¹⁴ ونركز في دراستنا هذه على الخطاب الديني والسياسي.

والخطاب هو المفهوم الأكثر أهمية في أعمال "فوكو". والجسد مهم عند "فوكو" لدرجة أنه يصف أعماله على أنها تشكل "تاريخ الأجساد". ويعتبر الخطاب فئةً من المبادئ التحتية المدججة في شبكة دلالات تؤسس وتنتج وتكرس علاقات بين ما يمكن رؤيته وقوله والتفكير فيه.¹⁵

¹² كرس شلج، الجسد والنظرية الاجتماعية، مرجع سابق، ص 108.

¹³ كرس شلج، نفس المرجع، ص 108.

¹⁴ -Foucault. M. *The Archaeology Of Knowledge*. Tavistock. London. 1974. P. 101.

¹⁵ -Dreyfus. H. and Rainbow. Michel Foucault. *Beyond Structuralism. And Hermeneutics*. Harvester. Brighton. 1982. P99.

جلب تطورُ الحداثة معه تحولاً في الفضاءات الاجتماعية التي يشغلها الخطاب. ونخصُّ هنا بالذكر المؤسسات الإعلامية (الفضائيات) والتي تملك التأثيرَ الأعَمَقَ في تشكيل الأفراد. اشتمل هذا التحول على تغيير في الهدف، وفي موضوع ونطاق الخطاب. ويتّضح تحوّل هدف الخطاب من "الجسد بوصفه لحماً ودماً إلى "الجسد المعقلن"

تكاد رؤية - فوكو - في الجسد تدور حول مسألة العلاقة بين الطبيعي والاجتماعي. وتعرض المقاربة الطبيعي على أنه "مادة الحياة الاجتماعية الخام. وعلى حد تعبير (فيس) " أن الجسد مفصل ثقافياً دائماً، إذ أنه لا يوجد إطلاقاً في وضع محض أو غير مُقنّن." ¹⁶

هكذا يؤكد فوكو على دور المجتمع في الجسد إلى حد يجعل الجسد يختفي بوصفه ظاهرة تتطلب بذاتها تقصّياً تاريخياً مفصّلاً. إنه حاضر بوصفه موضوعاً للنقاش، لكنه غائب بوصفه موضوعاً للتحليل. ولأن الجسد هو ما يشكّله الخطاب فإن الخطابَ عوضاً عن الجسد هو الذي يحتاج إلى تحليل وفق رؤية فوكو. والخطاب يتجسد في دراستنا هذه في المؤسسات السياسية والإعلامية التي تريد التحكم في الجسد الأنثوي واستخدامه، سواء المناهضة له أو الداعية إلى الحجاب على حد سواء.

1-4 المقاربة الرمزية لبيار بورديو Pierre Bourdieu: يشير مفهوم - بورديو - للجسد بوصفه نوعاً من رأس المال المادي إلى شيوع عملية تسليع الجسد، وهو موقف يربط هويات البشر بالقيم الاجتماعية التي يحصلون عليها بسبب حجم وشكل ومظهر أجسادهم. في المقابل يبين "إلياس" كيف أصبح الجسد بشكل متصاعداً فردانياً، بسبب الصراع الذي يحدث داخل الجسد الواحد ومتطلبات التحكم في العواطف بحيث نبذل المزيد من الجهد في مراقبتها، وترويضها والعناية بمظهرها. ¹⁷

تتمثل السوسيولوجيا كما أفهمها في تحويل مشكلات ميتافيزيقية إلى مشكلات قابلة لأن تُعالج معالجةً علميةً وبالتالي سياسية ¹⁸. في تقدم الهيمنة الذكورية باعتبارها ظاهرة طبيعية متجذرة على اختلاف الجنسين. إلا أن هذه الهيمنة في الواقع

¹⁶ -Fus. D. Essentially Speaking. **Feminism. Nature and Difference**. Rout ledge. London. 1990. P.6.

¹⁷ - كرس شلنج، الجسد والنظرية الاجتماعية، مرجع سابق، ص 35.

¹⁸ - Pierre Bourdieu , **questions de sociologie**, Paris, 1980 p45.

هي نتيجة لصيرورة تاريخية ثقافية قائمة انطلاقاً من قاعدة طبيعية هي الاختلاف الفيزيولوجي بين الذكر والأنثى. وترسخت هذه "الأركيولوجيا الموضوعية في لا شعورنا".¹⁹

وتؤكد هذه الهيمنة في نمط التنشئة التقليدية للفتاة حيث يستعمل - بورديو - التقليد القبائلي الذي يعلن عن نفسه باعتباره رؤية مركزية مشتركة بين سائر مجتمعات البحر الأبيض المتوسط، ومن ثمة يبين التفاصيل كيف يُسقط مجتمع ما تشغيل رأسماله الرمزي (الشرف) على التقابل: مذكر - مؤنث، بإعادة تفسير معطيات الحياة الاجتماعية والرمزية بحسب هذا التقابل الأوّل. إن سلطة الرجال وشرفهم هما اللذان يقتضيان أن تعمل النساء في المنزل، وهذا يجد تبريره في كونهن ضعيفات غير قادرات على التصدي للأعداء.

وتكمن أصالة - بورديو - هنا في قلب العلاقة بين الأسباب والنتائج التي أدت إلى تقديم هذا البناء الاجتماعي كأنه طبيعي. إن الاختلافات المرئية بين الجسدين الذكوري والأنثوي تغدو هي ضامن القيم المصنوعة غير القابل للنقاش. وفي الواقع يعتبر هذا «العمل في تشييد الشأن الرمزي» تشغيلاً لعنف رمزي وكأنه سلوك طبيعي ذلك أنه يطبع النساء والرجال على حد سواء، هكذا تجد النساء أنفسهن تحكين وضعيتهن استناداً لمعايير الإيديولوجيا الذكورية المهيمنة. مُحرضات على انتقاصهن الذاتي وبالاستناد إلى إحصائيات، يُظهر - بورديو - إلى أي حد تتبنّى أغلبهن وبكيفية لا شعورية كلياً وجهة نظر الرجال في تقييم تصرفاتهن، هكذا فإن ثلثي النساء الفرنسيات يُصرّحن برفضهن الاقتران برجل يصغرن سناً مبديات بذلك تعلقهن بعلامات التنشئة الجنسية.

ويدرس - بورديو - أيضاً عوامل الديمومة وعوامل التحول. فإعادة إنتاج القيم الذكورية تدوم في تعدد الأوضاع التاريخية بدعمٍ من المؤسسات التربوية: العائلة بالتأكيد والدولة ودور العبادة، ثم مؤسسات أخرى: الحقول الواسعة المفتوحة في وجه الكفاحات النسوية. في فك المرأة من قبضة الرجل.

¹⁹ -Pierre Bourdieu, **La domination masculine**, Seuil, Coll. Liber, Paris, 1998. p 150.

يشير مفهوم - بورديو- للجسد بوصفه نوعاً من رأس المال المادي إلى شيوع عملية تسليع الجسد؛ وهو موقف يربط هويات البشر بالقيم الاجتماعية التي يحصلون عليها بسبب حجم وشكل ومظهر أجسادهم. إنه يجمع بين هذا وتحليله لكيف أنّ كثيراً من الصراعات التي كانت تحدث بين الأجساد أصبحت تحدث الآن داخل الفرد الجسدي بسبب متطلبات التحكم في العواطف. إنّ هذه العمليات تجعلنا نعيش وحيداً مع أجسادنا ؛ بحيث نبذل المزيد من الجهود في مراقبتها وترويض أمرها والعناية بمظهرها.

كما يقول بورديو إنّ "قوة النظام الذكوريّ تكمن في كونه في غنى عن التبرير"²⁰. و- بورديو- نفسه يتحدث عن التبرير الاجتماعيّ التي يتمّ بها الإقناع بالهيمنة الذكوريّة. والاستغناء عن الكثير من التبرير ناتج عمّا يسمّيه عالم الاجتماع نفسه بـ "العنف الرمزيّ" المرتبط بالهيمنة الذكوريّة، وهو عنف "هادئ ولا مرئيّ". يجعل المهيمن والمهيمن عليه يشتركان معا في نفس اللغة، ويجعل المهيمن عليه يرتاح إلى قيده وينجذب إليه وكأنّه واقع تحت مفعول السحر: يجعل النساء أنفسهنّ يخترن الحجاب ويدافعن عنه .

الأجساد وحدات لم تكتمل وتشكل من خلال تفاعلها في الحياة الاجتماعية وتطبع عليها سمات الطبقة الاجتماعية، فهي تتطور الأجساد عبر التفاعل بين موضع الفرد الاجتماعي وبيئته وذوقه، وتعمل هذه العوامل على تطبيع وتثبيت العلاقات المختلفة التي تربط الجماعات داخل المجتمع بأجسادهم كما أنّها تعتبر أساسية للاختيارات التي يتبنّاها الأفراد في مجالات الحياة الاجتماعية كافة.²¹

وأساس المقولات التصنيفيّة التي تكرّس الهيمنة الذكوريّة لها ارتباط وثيق بثنائية المحسوس والمعقول، حيث تكون المرأة محسوسة والرجل معقولا. هذه الثنائية العتيقة التي نجد تعبيراً عنها في قول محمد بن سيرين: "ما رأيت على امرأة أجمل من شحم، ولا رأيت على رجل أجمل من فصاحة"²².

²⁰ -Pierre Bourdieu, **La domination masculine**, Paris, 1998, p15.

²¹ -Bourdieu, p. Men and machines, in K. Knorr- Cetini and A.V. Eds.1981. P.98.

²² - ابن عبد ربه : **العقد الفريد**، ص246، موقع الوراق.

ما زالت المقولة مستمرة إلى اليوم، وما زالت تغذي الدعوة إلى الحجاب للستر جسد المرأة، ولها امتدادات في خطابات مختلفة قد لا تكون دينية بالضرورة. فالأرسوزي يقول مثلا إن "عقل المرأة في جمالها وجمال الرجل في عقله"²³ مؤيدا بذلك المنطق الذي يلغي الكائن العاقل في المرأة ويلغي الكائن الجميل في الرجل، ويجعل الحجاب تبعا لذلك مفروضا على المرأة دون الرجل. لأنها تمثل موضع الفتنة والإغراء.

إلى جانب ذلك فالحجاب بمختلف تمثلاته ليس شكلا لحضور المرأة في الفضاء العمومي بل أنه تجسيد لوعي ذكوري لهذا الحضور على حد تعبير عالم الاجتماع الفرنسي - بيار بورديو -. لأن الأمر يتعلق بـ "تدين" للجسد ومنحه هوية خارج طبيعته وخارج كل حاجاته البيولوجية السابقة الوجود على كل الأشكال الثقافية. وهذا "التدين" للجسد هو مقدمة ضرورية لتدين الفضاء العمومي والتحكم فيه. وحتى وإن كان الموضوع يبدو نسائيا فإن للرجال فيه نصيب كبير، فوعي المرأة يصنع الرجل من داخلها لفرض سلطته الذكورية" على حد تعبير - بيار بورديو -

1- 5 الاقتراب المسرحي وإرفين جوفمان Erving - Goffman: أعمال جوفمان هي المؤثر الأكبر في رؤى البنائية الاجتماعية في الجسد لقد تفصل وضع الجسد في التفاعل الاجتماعي عبر أعماله في السلوك في الأماكن العامة والخاصة وفي عرض الذات. وأكد على أن ترويض الجسد أساسي في الحفاظ على المواجهات. ويتوسط الجسد أيضا علاقة هوية الفرد الذاتية بالهوية الاجتماعية.

يعد الجسد مركزيا بالنسبة إلى أكثر وحدات نظام التفاعل الأساسية في أعمال جوفمان. كما تبدو أعماله أكثر تأكيدا على الجسد كمكمل للفاعلية البشرية. وجوفمان مهتم أساسا بكيف يمكن الجسد الناس من التدخل وإحداث فرق في سير الحياة اليومية. غير أن الأفراد المتجسدين ليسوا مستقلين في أعماله وتحليله للمفردات المشتركة في التعبيرات الجسدية" (أو الصور المتعارف عليها للغة غير لفظية) التي ترشد إدراك الناس للمظاهر والأداءات الجسدية، وتوضح القيود الاجتماعية التي يتم ترويض الجسد في سياقها، وفق أنماط التنشئة الاجتماعية. كما تتركز مقارنة جوفمان للجسد على جانبيين:

أولا: ثمة رؤية في الجسد كخاصية يختص بها الأفراد. حيث يجادل جوفمان بأن الأفراد قادرين على التحكم ومقاربة أدائهم الجسدية على نحو يسهل عملية التفاعل الاجتماعي. وهو يظهر في أعمال جوفمان كمصدر يشترط ويمكن الناس من

²³ -الأرسوزي: الأئمة والأسرة، دون سنة، وبدون دار نشر، ص310.

ترويض سلوكياتهم ومظاهرهم. وهنا نشير إلى هامش الحرية الذي تمتلكه الفتاة في ظل التنشئة الذاتية .الذي تستطيع من خلاله تحسين مظهرية حجابها وفقا للموضة ومتطلبات الحياة العصرية.

فالجسد ليس منتجا تماما من قبل القوى الاجتماعية، كما في أعمال فوكو فإن دلالات الجسد لا تخضع لتحكم الأفراد المباشر. والتعبيرات الجسدية شكل متعارف عليه من أشكال الاتصال غير اللفظي ويشكل أهم مكونات السلوك العلني. إنه يُستخدم من قبل جوفمان بمعنى عام للإشارة إلى "اللباس، الحركة، مستوى الصوت، الإيماءات الجسمية من قبيل التلويح والتحية، ملامح الوجه، والتعبيرات العاطفية العامة"²⁴

ثانيا: عند جوفمان الجسد يقوم بدور مهم في توسط العلاقة بين الهوية الذاتية والهوية الاجتماعية. فالدلالة الاجتماعية التي تعزى لأشكال وأداءات جسدية بعينها والتي يتم استيعابها تؤثر كثيرا في إدراك الفرد لنفسه ومشاعره بخصوص قيمته الداخلية-الجسد القابل للترويض-غير أنه تجدر الإشارة إلى أن جوفمان يميل إلى افتراض وجود رابط أوثق مما يجب بين هوية المرء الاجتماعية الافتراضية وهويته الاجتماعية الواقعية. ويجوز تحليل جوفمان لنظام التفاعل أهمية كبيرة نسبة إلى فهم الجسد القابل للترويض بسبب الرؤى التي يعرضها في كيفية تحكم الأفراد في أجسادهم ومراقبتها. أيضا لديه الكثير من الأفكار القيّمة فيما يرتبط بالعلاقة بين الجسد، والهوية الذاتية والهوية الاجتماعية

عند جوفمان " يقوم الجسد بدور مهم في توسط العلاقة بين الهوية الذاتية والهوية الاجتماعية التي تعزى لأشكال سلوكيات جسدية بعينها يتم استيعابها وتؤثر كثيرا في إدراك الفرد نفسه ومشاعره بخصوص قيمته الداخلية."²⁵

وفي دراستنا هذه نري أن الخمار يعكس الهوية الاجتماعية للفتاة بينما باقي الملابس تعكس الهوية الذاتية أو الفردية للفتاة. لأن غطاء الرأس هو الثابت ويمثل المركز في رمزية الحجاب وانما شكل ولون باقي اللباس متغير، يتحكم فيه الذوق وبنية الجسد وما يلائم المرأة من الثياب.

²⁴ -Goffman, E. Stigma. Notes On The Management Of Spoiled. tity . Penguin. London. 1990. 35-33

²⁵ كرس شليج، الجسد والنظرية الاجتماعية، مرجع سابق، ص 118.

إن ترويضَ الجسدِ أساسيٌّ لانسايية المواجهات وتمثيل الأدوار، وبوجه عام لقبول المرء بوصفه عضوا كاملا في النظام التفاعلي. وفي أعمال جوفمان يعد هذا القبول حاسما لهوية الفرد الذاتية بوصفه كائنا بشريا مقتدرا يحمل قيمةً. وكما يقترح تحليل جوفمان للشعور أنه ينزع الواحد منا إلى إدراك جسده كما لو أنه ينظر في مرآة تعكس صورةً مشكّلةً وفق رؤى المجتمع ومحاباته".

2- الحجاب وسوسيولوجية الاستهلاك

2-1- مكانة الجسد في مجتمع الاستهلاك: بعد عرض التفسير النظري لسيسولوجيا الجسد نحاول استعراض بعض الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية العميقة المتعلقة بالموضة الحجاب. لقد كانت الحضارة قديما تُنتج للإنسان ما يحتاج إليه، ومع التطورات التقنية والتكنولوجية أصبحت تنتج له ما يريده، والآن هاهي تنتج له ما تريده هي. من أجل أن يحافظ النسق الرأسمالي على استمرار وجوده. فالإنسان المعاصر ينفق ثلاث أرباع دخله المادي في ميزان الكماليات- كفاتورة الهاتف النقال، والأكلات السريعة في الشوارع. وأزياء الموضة، وأنواع الماكياج... الخ فالحضارة تفرض أنماط من الاستهلاك تُرهق كاهل المستهلك لذلك يقول المثل الشعبي:- من اشترى ما لا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه -

يشير بودريار، في كتابه "مجتمع الاستهلاك"، إلى مفارقة غريبة في تاريخ تحكم المؤسسات بكل أشكالها في السلوك الإنساني وترويضه وتوجيهه وفق غايات ليست غريبة عن السلطة وطريقتها في إدارة المجتمع وهوامشه. فعبّر هذه المؤسسات "حاولوا زمنا طويلا إقناع الناس - دون جدوى - أن لا جسد لهم. أما الآن فيحاولون بجميع الوسائل إقناعهم بضرورة الالتفات إلى أجسادهم والاعتناء بها"²⁶. وغرابة هذا الموقف هي التي تؤكد عكس ما قد يتصوره البعض "أن بداهة الجسد لا يمكن أن تنسينا أنه واقعة ثقافية"²⁷ قبل أن يكون كتلة من اللحم والشحم. "فعلاقة الناس بأجسادهم تعكس، في كل الثقافات، نمط علاقاتهم بالأشياء المحيطة بهم، كما تحدد نمط علاقاتهم الاجتماعية"²⁸. إن الكشف عن كل أسرار الجسد أو التستر على خباياه يؤكدان قوة حضوره في كل حالات التواصل الإنساني، بل يؤكدان أيضا أهميته في بلورة مجموعة كبيرة من المعايير التي تعتمدها التصنيفات الاجتماعية المسبقة: حالات اللون أو الثوب الدال على الانتماء إلى ثقافة بعينها. أو طبقة بعينها

²⁶ - J Baudrillard. La société de consommation, éd Folio, 1970, p200

²⁷ - Ibid., P. 201.

²⁸ -Ibid., P. 202.

أو حتى جماعة بذاتها يضاف إلى ذلك تلك العلوم التي بنت معاييرها في الحكم على الناس وتحديد أمزجتهم وميولاتهم استناداً إلى تفاصيل الوجه وشكل اللباس ولونه .

2-2 ثقافة الموضة في سوق الاستهلاك: المذهل أن الاستهلاك للسلع الكمالية يمثل استنزافاً لثروة المجتمعات، لأن قيمة هذه السلع تذهب إلى الشركات المستثمرة. ولتأخذ نمط أنواع الألبسة الفاخرة جداً والتي نجد فيها ارتفاعاً في السعر يتزايد بتزايد محلات بيعها وكأن هناك سباقاً محموماً للمناظرة بين من سيشتري بالسعر الأعلى أو حتى تغليفها ببعض الماركات المشهورة في الأزياء، اليوم يتكرر النظام الاستهلاكي رموزه وطقوسه وآهته كذلك. أي أسطوره وتسوَّق هذه الأسطورة إعلامياً وثقافياً، ومن خلالها يجري تقنين الحاجات والرغبات والأذواق والقناعات. وما يحصل هو بهرجة وتنوُّع ووفرة ، مع إفراغ كل شيء من المعنى.

فالأفراد مشاريع لكل ما تقتضيه الإستراتيجيات العاملة في مؤسسات الهيمنة والسيطرة والتحكم. - على حد تعبير ميشال فوكو- إن المجتمع الذي يدّعي أنه ديمقراطي يسعى من خلال آليات صيرورته إلى تجريد الإنسان من هاتين الخاصيتين اللتين هما دعائماً أية ديمقراطية، أي الإحساس بالتفرد والحرية. فمن يختار الحرية والتفرد يُصوَّر كحالة شاذة ومنبوذة، لأنه وقف وربما من دون أن يدري ضد إيديولوجيا المجتمع الاستهلاكي، وموجهاته الخفية، "الفرض الفكري والانفعالي للامتثال يبدو وكأنه علامة عُصاب وعجز"²⁹. وساعدت صناعة الصور على ترسيخ ظاهرة الموضات في الحقول كافة.

ما عاد الاستهلاك قيمةً ينبغي تعميمها لأجل الربح فقط، بل غداً بآلياته الناجمة الوسيلة الأساسية للمؤسسة الرأسمالية في عمليات الضبط والتحكم والرقابة أيضاً ولهذا يسعى الإعلام الحالي إلى عوالة الاستهلاك قيمة وسلوكاً، فأنت إنسان عالمي متحضر بقدر ما تنفق على ما يوجهك إليه الإعلان.. إن الاستهلاك المعمّم هاهنا يبدل قناعات الفرد ورؤيته إلى نفسه وإلى الآخرين وإلى الأشياء.

إنك لا تختار بوحى إرادتك.. إنه الإعلان والإعلام الذي يوجهك في الاختيار. وإذا ما أدركنا دوافع الإعلان التجارية والسياسية أمكننا الاستنتاج بأن النظام الإعلامي قادرٌ باستراتيجياته وآلياته على تسيير الإنسان وفق مقتضياته وأهدافه البعيدة.

²⁹ - هيرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد ، تر: جورج طرايشي ، ط3، دار الآداب ، بيروت، 1988 ، ص41.

كانت المجتمعات القديمة تنتج أساطيرها لتؤمن التحكم بأفرادها، وتحقق توازناً في الداخل، ومع الخارج. والمجتمع الاستهلاكي المعاصر يتحول إلى أسطورة، ولهذا فهو ليس بحاجة إلى إنتاج الأساطير حسب ما يؤكد بودريار:

" فكل الوظائف والحاجات قد وُضعت واستُعملت لأغراض الربح، حيث تمسح كل شيء، أي تبرمج في علامات ونماذج قابلة للاستهلاك".³⁰ وما كان لفترة من الزمان حكر على الطبقة العليا يصبح بعد زمن في متناول الجميع فليس هناك أنماط حياة مغلقة واحدة على الأخرى، وموضوعات الآبهة والأزياء التي تبدأ من حاجة الفئة العليا للتباهي والتمايز الاجتماعي تجد أداة لتعميمها في المستقبل كالسيارة والأجهزة الالكترونية. إذ بدون هذا التعميم يفقد المشروع الرأسمالي مصدر مشروعيته".³¹ وهذا هو أصل الاندماج الثقافي لا باعتباره معطى ناجز. بل صيرورة تاريخية ومسعى نحو الوحدة والتكافؤ والتوحيد".³² فالعولمة تعمل على إذابة بعض الفروقات بين الطبقات على الأقل في بعض الأشياء الاستهلاكية التي يأتي في مقدمتها الألبسة فما كان حكر من سنوات قليلة على الأثرياء هو اليوم في متناول حتى الطبقات الفقيرة كالهاتف النقال أو أجهزة الكمبيوتر.... الخ.

2-3- الحجاب وصناعة الاستهلاك: أصبح عرض الجسد معبراً عن شخصية الفرد الحقيقية. لقد ساعد هذا ثقافة الاستهلاك المعاصرة على تكريس خبرة، أن يصبح المرء جسده، بمعنى أن يُماهي نفسه إيجاباً وسلباً بجسده الخارجي وأن يصبح منظماً، قلقاً من أن يخلد جسده إذا لم يوله عناية كاملة".³³ وهو ما فتح الباب أمام صناعة الموضة الإسلامية، ومثل أية صناعة أخرى، تطمح في المقام الأول أن تكون مشروعات رأسمالية ناجحة ومزدهرة. أدرك أصحاب المشاريع المُحتَكُون مبكراً أن ثمة فرصة كبيرة للربح من تسويق الحجاب. ونظراً لأن التحجب يحمل معانٍ متباينة لمختلف الأفراد، وأن طريقة ارتدائه تتنوع في مختلف أنحاء العالم، فقد أصبح مدلوله شاغراً، بالإمكان إضفاء معانٍ اجتماعية جديدة عليه، وبيعه بأثمان باهظة. أصبح فهم رغبات الطبقة الوسطى الصاعدة حول العالم وتوفيرها، ومعها رغبات العميلات الخليجيات بالغات الثراء، أصبح وسيلة من يتوسل النجاح من رجال الأعمال لمراكمة الأموال".³⁴

³⁰ - جان بودريار، المجتمع الاستهلاكي، دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي وتراكيبه، تر: خليل أحمد خليل، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995، ص 257 - 258.

³¹ - برهان غليون، اغتيال العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، موف للنشر، الجزائر، (د.ن)، ص 251.

³² - برهان غليون، نفس المرجع، ص 251.

³³ - Goffman. E. Behaviour in Public Places. Notes on Social Organization. Of Gatherings. The Free Press. New York. 1983. P.50

³⁴ - سحر عامر، الحجاب: الأصول-التنوعات-التداعيات، تر: فاطمة نصر، ط1، مكتبة سطور الجديدة، مصر، 2014، ص 210.

" وبفضل نماذج استهلاك النساء المسلمات، أصبحت الموضة الإسلامية اليوم صناعة تقدر بمليارات الدولارات. أدركت فرنسا، بخاصة المكانة المتميزة التي تحتلها في مخيلات الكثيرات من نساء الشرق الأوسط، وقامت بالتوسع في مشروعاتها كي تضمن الحفاظ على ما قدره 30% من بيزنس الرفاهية الذي تحققه بالفعل في منطقة الخليج في اتباع استراتيجيات التسويق وتنمية فرص للبيزنس في البلاد ذات الغالبية المسلمة من أجل أن تبيع آخر ابداعاتها من الخمارات، والحجابات والمكياج ويعد هذا من المفارقات لأن فرنسا كانت البلد الذي حَظَر مؤخراً ارتداء الحجاب والنقاب في المدارس العامة. والمؤسسات الحكومية على أرضه. وكما يردد صُناع السياسة الفرنسيون، فإنَّ بإمكان الحجاب والنقاب أن يهدد العلمانية الفرنسية، إلا أنَّها مصدر أيضاً للثروات التي تريد أن تكون فرنسا شريكا فيها.³⁵

2-4 عروض الأزياء الإسلامية: حدثت أولى تلك المناسبات في تركيا عام 1992 حيث نظمتها "تكبير جيم" إحدى كبرى شركات الموضة الإسلامية و التي تتخذ "من أجل جعل التغطية جميلة" شعارا لها. يقوم بعرض أزياء شركة تكبير موديلات (عارضات) تركيا شهيرات عُرف عنهن عروض أزياء السباحة، وملابس النساء الداخلية والملابس العلمانية بأسلوب منتظم، لكنهن شوهدن يرتدين الإشارات والعباءات والفساتين الطويلة والبدايات المحتشمة ويستعرضنها في إحدى عروض الأزياء الإسلامية الذي سرعان ما هاجمه كل من المسلمين المحافظين والعلمانيين، إلا أنَّ النجاح الكبير الذي أحرزه أدَّى بالشركة الى تكراره مرارا وبالشركات الأخرى الى محاكاته.³⁶

³⁵ - سحر عامر، الحجاب: الأصول- التنوعات- التدايعات، مرجع سابق، ص 216.

³⁶ - سحر عامر، نفس المرجع، ص 229.